عالم كفيف

عاشق لمخطوطاته خبير بها رغم ذهاب بصره

ناصر الدّين شافع بن عليّ العسقلاني

(٦٤٩ ـ ٧٣٠ هـ)

رحمة الله عليه

بقلم:

د. جمال عزون

-حفظه الله تعالى-

مجموعة المخطوطات الإسلامية

almaktutat.blogspot.com

هو شافع بن عليّ بن عبّاس بن إسماعيل بن عساكر الكناني العسقلاني ثمّ المصري، كاتب مؤرّخ له شعر كثير جيّد، باشر ديوان الإنشاء بمصر زمانا، وأصابه سهم في صدغه في وقعة حمص بين الجيش المصري والجيش المغولي سنة ٦٨٠ هـ فعمي، وكان جمّاعا للكتب ـ طبعا مخطوطات في زمانه ـ، خلّف ١٨ خزانة فيها عدد وفير من النّفائس الأدبيّة، ولما كفّ بصره كان إذا جسّ كتابا منها عرفه، وإذا أراد كتابا عرف موضعه، وكتب الخطّ المنسوب، وكانت زوجته تعرف ثمن كلّ كتاب، وبقيت تبيع منها بعد وفاته رحمة الله عليه.

قال البوتيجي: « كان إذا لمس الكتاب وجسّه قال: هذا الكتاب الفلاني ملكته في الوقت الفلاني، وكان إذا أراد أيّ مجلّد قام إلى الخزانة التي هو فيها وتناوله منها، كأنّه الآن وضعه فيها ».

ومن شعر أديبنا وقد احترقت خزائن المخطوطات في أيام الملك الأشرف:

لا تحسبوا كُتْبَ الخزانة عن سُدًى   هذا الذي قد تمّ من إحراقها
لـمّا تشتّت شَمْلُها وتفرّقتْ   أَسِفَتْ فتلك النّارُ من زَفْراتِها

تعليقات :

١ ـ هذا الأديب العالم كان متيّمًا بمخطوطاته عاش معها مرحلتين اثنتين :

الأولى: أيّام كان ممتّعا ببصره يقرأ فيها ويطالع وينقل وينسخ ما تيسّر من مخطوطات بخطّه النّفيس الذي كان من نمط الخطّ المنسوب المشهور، وقد رتّب المخطوطات في خزائنها الثّمانية عشر ترتيبا معيّنا سهّل عليه العثور على أيّ مخطوط يريده، ولكثرة مطالعاته وتكرّر وقوع الكتب بين يديه ولمسها انطبع في ذهنه ماهيّة كلّ كتاب، مستحضرا وقت تملّكه له.

الثّانية: أيّام ذهاب بصره وابتلائه بذهاب حبيبتيه، ولا شكّ أنّه أمر شديد على مثل هذا الأديب الذي حرم في هذه المرحلة من متعة القراءة في مخطوطات خزائنه العامرة، لكنّه كان خبيرا بمواقعها وأسمائها يستخرجها بكلّ سهولة إذا احتاج إليها مستعينا ـ بلا شكّ ـ بعالم زاره في بيته أو تلميذ حضر عنده مستفيدا.

٢ ـ ثمّة شريحة وافرة من أهل العلم وطلاّبه محرومون من نعمة البصر يتمنّون أن يسهّل الله طريقة ما يستفيدون بها من المخطوطات

إذا تعذّر من يقدّم لهم يد المساعدة قراءةً أو نقلاً، وقد تحقّق لهم هذا ـ إلى حدّ كبير ـ مع المطبوعات من خلال طريقة « بريل » المشهورة.

٣ ـ كم هو مؤلم ذاك السّهم الذي أصاب صدغ أديبنا شافع وأدّى إلى فقدانه للبصر، وهو الذي خرج من بيته سليما معافى وقد ودّع أهله وكتبه مشاركا للملك وجيشه في دحر العدوّ المغولي الظّالم المدعّم من الرّوافض كعادتهم الخبيثة في نصر الكفّار على المسلمين السّنّة.

٤ ـ نكبات المخطوطات لم يخل منها عصر، وما حدث في عهد شافع شاهد آخر، وأعظم من ذلك كلّه نكبة بغداد على يد هولاكو وتواطىء شيخ الرّافضة ابن العلقمي وأتباعه المعمّمين المنافقين حيث أغرقوا مخطوطات السّنّة في نهر دجلة حنقا على كتب ضمّتْ بين جنباتها خير العلوم، وما يحدث في هذه الفترة الزّاهية من تعميم للمخطوطات بين الدّارسين وتبادلها فيما بينهم لنعمة عظيمة ومنّة جسيمة امتنّ الله بها على أهل زماننا، ليتمّ حفظ هذه النّوادر من الضّياع وتتحقّق الفائدة الشّرعيّة والعلميّة من حفظها وتحقيقها ونشرها.

٥ ـ زوجات عشّاق الكتب كثير منهنّ ـ إلاّ ما رحم ربّي ـ يعتبرنها ضرّات لهنّ، يبدين تجاهها من العداوات ما يبدينها تجاه ضرائرهنّ، بحجّة الغيرة وقضاء الزّوج عاشق الكتب مع مطبوعاته ومخطوطاته أوقاتا مديدة قد لا يحظين بمثلها، ولذا تراهنّ يضمرن في أنفسهنّ شرّا بهذه الكتب، وبمجرّد ما يفارقها زوجها إلى الدّار الآخرة يبادرن إلى بيع هذه الضّرائر وطردها شرّ طردة من دار الزّوجيّة، وقد يستفدن بأثمانها إذا كنّ عارفات بأسعارها كما فعلت زوجة أديبنا شافع، والعجيب أنّه لم يدر بخلدها وقف كتب الشّيخ حتّى يتجدّد له الذّكر في الآخرين، والثّواب عند ربّ العالمين، بل بادرت إلى تحصيل الأثمان من هذه الضرائر العدوّات.

٦ ـ ومن المريب حقّا كيفيّة معرفتها بأسعار المخطوطات، فهل كانت تتربّص بالشيخ أثناء خروجه للصّلاة والتّدريس فتطالع ما قيّده على أغلفتها بخطه المنسوب الجليّ أثمان ما اشترى، خاصّة وقد ذهب بصره ولا يدري ما يصنع بكتبه في غيبته، أو كان أديبنا يخبرها بالأسعار بعد التملّك والشّراء فتقيّد ذلك عندها في دفتر خاصّ ريثما تحين الفرصة بعد وفاته لتبيعها وقد فعلتْ، غير أنّا نحسن

الظّنّ ونقول: لعلّها احتاجتْ إلى نفقة ولم تجد بدّا من بيع مخطوطات الشّيخ الأديب!

٧ ـ إنّ الزّوجات عاشقات المطبوعات فضلا عن المخطوطات أندر من عنقاء مغرب، والأمل معقود على ثلّة منهنّ يقتفين أثر المحدّثات الفضليات اللّواتي نقرأ عنهنّ في كتب التّراجم حكايات عن عشق الكتب وتحصيلها وسماعها وانتساخها ما يكون درسا مفيدا ـ إن شاء الله ـ للمعاصرات الفاضلات، حتّى لا تكون إحداهنّ إذا اقترنت بعاشق للمخطوطات غافلة عمّا هو مهموم به، إن حدّثها عن مخطوط نادر اكتشفه حدّثته عن طبخة نادرة تعلّمتها، وإن أخبرها عن كتاب رائع حقّقه أخبرته عن بضاعة جديدة أعجبتها، فهو في عالم المخطوطات وهي في عالم المطبوخات، لكنّنا نقول: إنّه تكامل بشري يسّره الله للطّرفين حتّى تمتلأ العقول بالعلم الماتع، والبطون بالغذاء النّافع.

٤ ـ وأخيرا نتمنّى أن يكون عند أحد من فضلاء هذه المجموعة المباركة من عشّاق المخطوطات أثر آخر من تآليف أديبنا شافع ـ وهي كثيرة، ولم أر مطبوعا منها سوى كتـــاب: « حسن المناقب

السّريّة المنتزعة من السّيرة الظّاهريّة » بتحقيق الأديب الوزير عبد العزيز بن عبد الله الخويطر رحمة الله عليه، وبقيت لشافع كتب أخرى ـ في عداد المفقود ـ من أبرزها :

١ ـ شنف الآذان في مماثلة تراجم قلائد العقيان.

٢ ـ شرح الصّدور من أخبار عكّا وصور.

٣ ـ قلائد الفرائد وفرائد القلائد فيها للشّعراء العصريّين من الأماجد.

٤ ـ مماثلة سائر ما حلّ من الشّعر وتضمّن الآية الشّريفة والأحاديث النّبوية من المثل السّائر.

٥ ـ ما ظهر من الدّلائل في الحوادث والزّلازل.

وأخيرا :

لو تكرّم فاضلٌ بإبراز خطّ أديبنا شافع المنسوب فتلك هديّة نادرة يستمتع بها الجميع بلا شكٍّ.

انظر عن أديبنا شافع :

أ ـ نكت الهميان في نكت العميان للصّفدي ١٤٣.

ب ـ الأعلام للزّركلي ٣/ ١٥٢. وغيرها من المصادر.